

## الرد على اللورد كرومر

(تمة الكلام في مسألة المعارف)

ان اللورد يعلم انه استعمل المناظرة في هذا الفصل فعمل محمد علي وعباس واسماعيل ليس حجة على ما يجب اتباعه الآن من حصر تعليم الحكومة في فرجة عدد معين للوظائف . والاتفاق في وقت كانت الحكومة فيه على شفا الافلاس لا يجعل مقياس الوقت يزيد فيه دخلها على خرجها زيادة عظيمة . ولو كان عمل محمد علي وعباس واسماعيل مما يصح ان يتبع في هذا المصير لكان الواجب على الناس ان يرجعوا القهقري دائماً ولا ساع لانكرا ان تدعي ان هذه البلاد محتاجة اليها في تقدمها وارتقائها فانها تقدر بنفسها ان تكون على احسن من زمن اسماعيل فما بال اللورد يمثل ظلمات الماضي الخالك كشر تمثيل فهو يجعلها أساساً يني عليه سياسته في التعليم ؟ اللورد قدّم المترجمين في كتابه ذمابليغاويين انهم لا قيمة لهم في نظر الشيخ محمد عبده فكيف لا يهتروا اذا طلب لبلادهم تعليماً أرفع من هذا التعليم الذي لا يقصد منه الا تكوين المترجمين ؟

ومن المناظرة في تقرير اللورد قوله ان ابطال التعليم المجاني كان إلغاء لامتياز جائر لان الذين كانوا يملكون مجازهم في الغالب اولاد الاغنياء، فان المدل في ازالة هذا الامتياز بما يوافق المصلحة انما يكون بتحويل الامتياز عن الاغنياء وتخصيصه بالفقراء وما أسهل ذلك على الحكومة لو أراده القابضون على أزمتهما



جرب طريق النصيحة فلم يجده موصلا الى المطلوب فلما صار مفتيا وعضوا  
في مجلس الشورى حاول ان يجعل مجلس الشورى وسيلة الى عرضه  
وبرأيه طلب بعض اعضاء الجمعية العمومية سنة ١٩٠٢ ان تعرض قوانين  
ولوئح التعليم في نظارة المعارف ( بروجراماتها ومنشوراتها ) علي المجلس  
ولم ينس اللورد تلك المناقشة التي دارت في ذلك بين الشيخ محمد عبده  
وفخري باشا ناظر المعارف في الجمعية العمومية ( وقد بينا ضيف اقوال  
الناظر يومئذ في المناظر ص ١١٠ و ١٤٩ م ٥ )

ثم ان الشيخ محمد عبده اقترح باسم المجلس في سنة ١٩٠٤ ان يعلم  
تاريخ الاسلام باللغة العربية في المدارس التجريبية . وقد ذكر في آخر  
تقرير له بشأن امتحان مدرسة دار المعلمين الناصرية ( دار العلوم ) ضيف  
تعليم التوحيد والتفسير والحديث فيها فاذا كان تعلم المعلمين للدين ضيفا  
فكيف يكون تعلم هؤلاء المعلمين له ؟

نكتفي بهذه المذكرات في بيان غلط اللورد في قوله ان ما كتب  
الشيخ محمد عبده لسيو جر قبل كان يعلم انه لا أصل له فهي تذكره ان  
كان ناسيا - ان لها أصلا أصيلا مؤيدا بالبرهان والدليل ، ومن المجائب  
ان يكابر اللورد في هذا مع ما يعلمه من مؤيداته الرسمية وغير الرسمية:  
فن ذا كتب ما يعلم انه لا أصل له ؟ الشيخ ام اللورد؟ اللورد يعرف ذلك  
اذا لم يكن السخط قد انساها تلك اللائحة التي قدمت اليه وتلك الحجج  
المدونة في المحاضر والدواوين الرسمية وكما ناطقة بأن الشيخ محمد عبده  
لم يكن راضيا من التعليم والتربية في مدارس الحكومة . فهذا ما نقول  
في السبب الاول لسخط اللورد علي الاستاذ الامام وتغيير كلامه فيه

افضاء الامتياز الامام مستر بلنت بسبب الاحتلال

اما السبب الثاني لسخط اللورد على الشيخ وهو ما ظهر له من انه هو الذي لقم مستر بلنت جل ما في كتابه ( التاريخ السري للاحتلال ) من عيوب ادارة المحتلين بمصر<sup>(١)</sup> فهو مما يندر فيه فان هذا مما يفيض السياسي والحاكم المطلق حقيقة . واي شيء يؤلم الانسان اكثر من بيان عيوبه واظهار سيئاته ؟ ولكن يجب على المؤرخ ان يعدر حافظي الوقائع التاريخية ورواياتها ومدونيهاء واللورد في كتابه « مصر الحديثة » مؤرخ لاحاكم فكان يجب ان يتذكر ذلك . ثم اذا كان هو في تدوينه لتاريخ مصر لم يتعام القبح في اسرائها وعلماؤها وعمالها وجميع اهلها بناء على انه مؤرخ يجب عليه اظهار الحقائق . اذا فرضنا ان كل ما كتبه حقائق فكيف يسخط على من سلك طريقته ومن امانه على ذلك ؟ اليس من العدل العام ، ان يدين المرء كما يدان ؟ هذا ما يقال من الجهة العامة . ويقال من الجهة الخاصة ان مستر بلنت كان صديقا للشيخ محمد عبده وكان كل منهما يثق بأمانة الآخر وإخلاصه فبأي حق يحجر اللورد على صديقين متجاورين ان يفضي كل منهما الى الآخر بما في نفسه من المسائل العامة او الخاصة ويكاشفه بشعوره لا سيما اذا كان مؤملا له والشاعر الحكيم يقول

ولا بد من شكوى الى ذي مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوجع  
ألا إن متعنى الاستبداد ، واحتقار حرية الافراد ، أن يؤاخذ الناس  
بما يتناجون به في زوايا بيوتهم ، وما يسرونه لاصدقاتهم ومحبيهم ،  
ثم ان اللورد يعلم كما يعلم كل عاقل انه لا يخطر في بال الانسان عند

ما يحدث صديقه ان كل ما يقوله سيحفظ ويدون وينشر بين الناس ولذلك  
يتقدم بعض أهل الرأي على مستر بلنت ذكر مسائل وخواطر حدثه بها  
الشيخ محمد عبده فشرها وهي مما لا ينبغي نشره كتمني جمال الدين لو يقتل  
امبا عيل باشا واستعصان محمد عبده لرأيه . على ان هذه المسألة اصغر من  
التألب الذي وضعها لورد كرومرفيه كاسنينه  
بقي علينا وقد بينا اختلاف قولي اللورد في الاستاذ الامام وسبب  
هذا الاختلاف ان بين الحق فيما لزمه به فنقول انه ينحصر بحسب  
ما اطلعنا عليه من ترجمة الجرائد في ثلاث مسائل

#### الاولى وصفه أنه خيالي

قول اللورد في الشيخ انه كان منطورا على الخيال<sup>(١)</sup> لا يتفق مع قوله فيه من  
الجهة العملية في الحكومة وغيرها انه كان مصلحا . ومن الجهة السياسية  
والاجتماعية انه أنشأ في مصر مدرسة فكرة وان اتباعه اذا نجحوا وسعدوا  
على ما اختطه لهم من المبادئ المتعددة فيهم تصل البلاد الى الاستقلال وانهم  
كالجير ونديين في أحزاب الثورة الفرنسية أي في الاعتدال والعقل ، كما  
لا يتفق مع قول المستشار القضائي الذي وافقه هو عليه . ومن الجهة العملية  
والشرعية انه كان متضلعا من علوم الشرع مع ما به من سعة العقل  
واستنارة الذهن

ما هي الآراء الخيالية التي كان يبديها للورد فيتمدر عليها تنفيذها لانها  
خيالية لاعملية لعله يعني بها تلك الألامه<sup>(٢)</sup> التي اقترح بها عليه جعل التربية  
الدينية أساس التعليم في المدارس والكتاتيب وبين له فيها انه لا يصلح حال

(١) راجع ص ٩٤ من الجزء الماضي (٢) تقدمت الإشارة الي هذه الألامه

البلاد المصرية وتكون بأمن حتى من التعصب وفتنه الا باتتربية الدينية الصحيحة لان الدين الاسلامي رائد الالفة ورسول المحبة . ان كان يعني اللورد باتباع الاستاذ الامام للخيال هذا الرأي الذي أوضحه أمم الايضاح في تلك اللائحة وكان يظهر على لسانه شيء منه في كل فرصة ( كاقتراحه في مجلس شعوري القوانين لتعليم تاريخ الاسلام في المدارس التجريبية ) فلماذا يبني الظن بدينه وهل تكون هذه العبرة على الدين لضاف الايمان اولاد ادرين ؟ للورد ان يعد طلب التربية الدينية والتعليم الاسلامي امرا خياليا لان سياسته في ذلك مناقضة لاعتقاد الاستاذ الامام فان أحدهما يرى ان الاسلام الحقيقي هو متهى الكمال البشري كما عرف ذلك عنه القريب والبعيد وصرحت به المجلة الفرنسية<sup>(١)</sup> ، والآخر يمثل الاسلام بأنه آفة المدينة ومقيد البشر بالقيود التي لا يرتقون مالم يتركوها ويتركوه محروما . ويمكن ان يقال ان تقديمه تلك اللائحة لمعيدا كثيرا وأمله بأن يقنعه بما فيها هو الامر الخيالي فانه قد بالغ في تحسين الظن بهذا الصيدوبدولته حتى أراد ان يستعين بهم على اصلاح شأن الاسلام ، وتخييل انه ربما يصل الى ذلك بالبرهان ، على اننا نحن نعرف السبب في محاولته ذلك وهو انه لما كان متهى عرضه من حياته الاصلاح الديني بالتربية والتعالم كان يتوسل الى ذلك بكل ما يخطر في البال انه ممكن قائلا « اذالم ينفع لا يضر »

اذا كانت تلك اللائحة هي دليل اللورد على ان الرجل كان خياليا فلا يعبدان يكون تقريره في اصلاح المحاكم الشرعية خياليا أيضا في نظر اللورد

(١) جاء ذلك في بعض اعداد سنة ١٩٠٥ منها - راجع ص ٢٢٨ من مجلد

فان لم يكن التقرير نفسه خياليا فالجراح كاتبه على اللورد بالسماح بالمال من خزانة الحكومة لتنفيذه هو الخيالي فانه انما سكت عن هذه المطالبة حين قال له اللورد « لاني لا أعطي قرشا واحدا للحاكم الآن » كما اخبرني بذلك الاستاذ الامام في وقته وقال « انه هكذا قال لا أعطي بضير المتكلم وهكذا يقول » فليقل لنا اللورد أي شيء في ذلك التقرير يعد من الخياليات أو من الاماني والاحلام التي هي غير ممكنة في ذاتها؟ ولكن يمكن لمن أساء الظن باللورد وحكومته ان يقول انهم لا ينفذون تقريرا فيه اصلاح للحاكم شرعية وراه اصلاحها لاصلاح كبير للبيوت الاسلامية لان من سياسة انكرا موت الشرع في مصر وإبطال ثقة المسلمين به حتى ان لورد كرومر الذي يعد من خيارهم يرى ، طالبتة باصلاح الحاكم الشرعية من الخيالات والاهام ، أو من الاماني والاحلام ، ؟ اذا قال من يسيئون الظن باللورد وحكومته مثل هذا القول أفلا يكون رمي الشيخ محمد عبده بأنه خيالي رميا للورد وحكومته بما هو شر من ذلك ؟ نعم انه كان للاستاذ الامام ، آمال في حسن مستقبل الاسلام ، قد قد يمدتها حتى بعض المسلمين من الاماني والاحلام ، فان منها أنه سينتشر في اوروبانفسها في يوم من الايام ، ولكن هذه الآمال مما لا أظن ان لورد كرومر قد علمها اذ لو علم بها لما ظن او خشي ان يكون الشيخ « لا أدريا » فانها امال مبنية على الايمان بصدق وعود القرآن اولا ، وعلى فلسفة دقيقة في طبيعة الاديان وطبائع البشر ثانيا ، فهو قد كان يقول على رموس الاشهاد في قوله تعالى « ٥٥: ٢٤ » وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى

لهم ، الآية « ان هذه الآية لم يأت أولها بعد ولا بدان يأتي ولو بمدحين وان كان يميدا » فهل تكون هذه الثقة بوعده في القرآن كهذا ( قيل انه قد حصل ) من رجل لا أدري ؟؟

نحن اعرف بالاستاذ الامام من لو رد كرومرفا تانرف منه كل شيء واللورد لا يعرف منه الا اشياء معدودة منها بعض الآراء في مصلحة مصر وكان صاحب هذه المجلة من بطانته ومواضع سره ولا أعرف عنه شيئا يمكن اللورد ان يستدل به على كونه كان ، فطورا على الخيال غير ما ذكرت من مطالبة اللورد بالمساعدة على التربية الاسلامية واصلاح المعاكم الشرعية الا ان يكون ذلك توجهته الى اصلاح الازهر ولكن كل ما ثبت به من الاصلاح كان هليا وقد نفذ شيء كثير منه كما هو مبدون بالتفصيل في كتاب ( أعمال مجلس ادارة الازهر في عشر سنين ) وما لم يتم منه لم يكن المانع من تمامه كونه خياليا وانما كان له مانع آخر يعرفه اللورد وكثير من الناس وليس هذا المقام بمحل لذكره

نم انه كان للاستاذ الامام آمال في الازهر هي أعلى وأسمى مما ثبت به من مبادئ الاصلاح التدريجية - آمال لها ارتباط قوي بآماله في الاسلام وهي تربية رجال يعرفون حقيقة الاسلام ويقدرون على يانها والدفاع عنها بالكتابة والخطابة ليكون منهم دعاة يدعون جميع الامم اليه ، وهداة يهدون جميع طبقات أهله الى ما جعلوا منه ، ولكن المواثق التي اعترضته في طريق الاصلاح حالت دون الدعوة الى هذا المقصد أو الى مقدماته الاولية ، وما أظن ان اللورد كان مطلما على هذا والا لما خطر في باله ان يكون الرجل « لا أدريا »

أما المسائل المتعلقة بالقضاء أو الإدارة فبهدي ان آراء الاستاذ  
الامام فيها كانت تعجب اللورد سواء عمل بها كمدوله عن إلغاء النيابة  
العومية عملاً برأيه أو لم يعمل بها كمشروع الجنايات الاخير الذي طالت  
فيه المناقشة بينها ولكن بعد ان كان اللورد قد أشرب المشروع في قلبه  
وان أكثر النابئين من رجال القضاء كانوا على رأي الاستاذ الامام  
في معارضة المشروع

وما ذهب اليه المؤيد في تأويل كلمة اللورد من أن الشيخ كان يحاول  
القبض على السلطين فيجعل الامير وعميد الاحتلال مما في يديه فهذا  
من آراء صاحب المؤيد التي لم تخطر للورد على بال فيما ينقلب على ظني

#### الثانية ظن اللورد انه لا ادري

نيزالورد الاستاذ الامام بلقب « اللأدري »<sup>(\*)</sup> وهو قد أخذ من  
ستانلي على أنه لم يجزم به فقد ترجم المؤيد عبارته فيه بكلمة « واخشي » ان  
يكون كذا وترجمها بعض الجرائد « وأظن » ان يكون كذا . وهذا من  
الظن الذي قال الله فيه « إن بعض الظن إثم » وقد قال بعض العلماء  
النابئين من سرهدي الاستاذ الامام ان اللورد قال هذه الكلمة لينفرنا  
من طريقة المرحوم الدينية ولكننا لا نترك ما عندنا من اليقين فيه لاجل  
ظن لورد كروس

اما أنا فأقول ان قاعدة ستانلي التي استنبط منها اللورد كلمته هي من  
المسلّمات عندهم فينا وهي « ان المسلم من الطبقة العليا لا بد ان يكون احد

(\*) راجع صفحة ۹۴ من الجزء الماضي

١٩٤٤ / أيام الفلاح بالاحمد . رأي فاضل انكبرى في الاسلام ( الخارج ٣ م ١١ )

اثنين متعصبا او ملحدان في سره » وعندنا قاعدة مثلها كنت اسمها واتا  
تلميذ مبتدي هو هي « ان النصراني المتعلم ملحدلا دين له فان تعصب لقومه  
وأهل دينه فانما يتعصب لهم تعصبا جنسيا » وما كنا نصدقه من آياتنا  
وبعض مشايخنا : « ان مما يتنازه به الاسلام على النصرانية المبروكة ان المسلم  
يزداد قوة في الاسلام كلما ازداد سعة في العلم وان النصراني اذا تعلم  
العلوم سرق من الدين وذلك كانت مدينة المسلمين وعلومهم في حياة  
ونمو أيام كان الاسلام حيا في قلوبهم في أول نشأتهم ولم يصر للنصارى  
علم ولا مدنية الا بعد ضعف الدين وزعزعة عندهم ، فالامم والمثل تشابه  
في حكم بعضها على بعض

قد ذكرنا دليل المسلمين على قاعدتهم من الجهة النظرية وتأييدها  
من الجهة الحسية بحال من يعرفون من النصارى المجاهرين بالاحمد وكثير ما هم  
ولما كان النصراني يعتمد بطلان الاسلام اعتقادا تقليديا ان كان متدينا  
واعتمادا نظريا ان كان ملحدا كان الملحد منهم ان يظن بهذا الدليل النظري  
ان المسلم الناطق المطلع على العلوم والفلسفة لا بد ان يكون ملحدا  
ولا يدمون من المسلمين المتفرجين من مجاهرون امامهم بالكفر ويسكرون  
معهم في نهار رمضان فيؤيدون دليلهم بالحس ولا يلمون ان هؤلاء الذين يظنون  
انهم قد أخذوا بيد اسلام لم يعرفوا فيما من الاسلام شيئا

قد عرفت رجلا من فضلاء الانكيزفوي التربية العالية فيهم وجرى  
بيني وبينه مناظرات كثيرة في المسائل الدينية فكان كلما سمع مني جوابا  
عن شبهة من الشبه التي يوردها على الدين مطلقا أو على الاسلام خاصة  
يقول « ان ما هو له مستقول ولكنه فلسفة لا دين وما أظن ان علماء الازهر

يقولون به أو سئلوا هذا السؤال « . وقال لي مرة « إن كنت الإسلام ما تقره فأنا مسلم » . وقال لي مرة بعد كلام قلته في الإسلام « اني أنا اعتقد هذا فلما إن اكون مسلماً وأما إن تكون كافراً » وقال لي مرة « ما اظن إن احداً يوافقك على هذا الاعتقاد في الدين الا الشيخ محمد عبده » ولا يبعد إن يكون ظنه فينا كظن اللورد في الاستاذ الامام . وقد ذكرت في المنار سؤاله اياي في رمضان : هل تصوم ؟ وعن جوابي له وما ذكرته له من حكمة الصيام واعجاب به

وقد دعاني غير واحد من فضلاء النمارة للتداه في رمضان وعرضوا علي القهوة سراراً كثيرة فكنت أقول متعباً أو نسيم اتسا في رمضان؟ فيقولون أو أنت تصوم أيضاً؟ فأقول : أي شيء يبيع لي الفطر ولست صريفاً ولا على سفر ؟

ولكن اذا كان الملحد من النمارة هو الذي يظن ان المسلم العاقل لا بد ان يكون اسلامه ظاهرياً وهو يسر الإلحاد في قلبه قبل اللورد ملحد أم هو مقلد لستانلي في قاعدته من غير دليل ولا فكر ؟ وكيف يثق هذا مع شهادته للشيخ محمد يرم بالايحاز والعقل جميعاً ؟

قال اللورد بعدما ذكر أنه يخشى ان يكون الشيخ محمد عبده لا أدرياً وان كان يستاء من هذه النسبة « فقوله هذا يشرباً أنه ذكر امامه ما يدل على انه يظن فيه هذا الظن تصریحاً او تلويحاً فاستاء وامتنع وتبرأ من ذلك وأنكره وكيف لا ينكره على اللورد مستاء وقد كان دينه اعز شيء عليه وهو الذي جعله لا يخاف في الحق لومة لائم وهو الذي جعل السياسة مأوساً منها عنده فكان جل قصده من معرفة رجالها ومدار لهم الاستمارة بهم على خدمة العلم والدين

من جهة وخدمة مصر من جهة أخرى فكان يتردد على الأمير ليستين به على اصلاح الأزهر ويختلف الى اللورد ليستين به على اصلاح الحاكم والمعارف وغير ذلك من المصالح التي شهد له اللورد بالوطنية الصادقة لسميه له به فيها . كان يستجديهما معا لمصر وللإسلام وقد اعطى كل منهما قليلا وأكدى . فلا عجب اذا جاءت كلمة اللورد في دين الاستاذ الامام غثة باردة تضاهل في طمر بال فانها عبارة عن ظن لم يستيقنه ، في موضوع لم يعرفه ،

#### الثالثة استحسان قتل اسماعيل باشا

قتل اللورد عن كتاب التاريخ السري للاحتلال ان السيد جمال الدين كاشف الشيخ محمد عبده بفكرة خطرت له وهي قتل اسماعيل باشا هند سرروه على « الكبري » اذا كان يمر كل يوم عليه وان الشيخ محمدا استحسن ذلك ولكن الامر لم يتجاوز الكلام بينهما<sup>(١)</sup> اي لم يكاشفا به أحدا لا اعتقادها انهما لا يجدان من يتجرأ على ذلك

كبر اللورد هذه المسألة وعظما ووجه قوة عقله المنطقي الاوربي الانكليزي للاستنتاج منها فكانت نتيجة « ان العالم المتمدن كله ينظر بمد هذا الى الوطنيين شزرا ١١١ ويحتقر بالاكتر أولئك الفلاسفة الذين لا يتأخرون عن تعزيز مقاصدهم السياسية بمثل ارتكاب القتل »

ربما يسهل على اضعف الشرقيين الذين يقول اللورد عنهم ان عقولهم غير منطقية فهي ضئيفة الاستنتاج والاستنباط بل على اضعف المصريين الذين يمدهم من اضعف الشرقيين عقولا واستنتاجا ان يفتدوا أمثال هذه النتائج التي استخرجها ذلك العقل الغربي المنطقي الكبير . فلو سألتنا أحد

لابسي الجلايب الزرقاء من فلاحى مصر والفيلسوف سبنسر والفيلسوف  
أرسطو: هل تقولون ان تفكر رجل غريب كاسيد جمال الدين الاقناني في قتل  
أمير ظالم كاسماعيل باشا واستحسان تلميذه كعبد مجده المصري لفكرته  
وهو شاب في سن الطلب والتحصيل ينتج وجوب احتقار العالم المتقدم لها  
وللوطنيين المصريين ذاتها لان تلميذاتهم استعمن من زهاء ثلاثين سنة قتل  
أمير خرب بلاده ومهد للاجانب احتلالها؟؟ - لو سئل الثلاثة هذا السؤال  
لاجاب الفلاح المصري واشهر الفلاسفة المتقدمين وهو أرسطو مؤسس  
علم المنطق واشهر الفلاسفة المتأخرين وهو سبنسر بجواب واحد وهو  
ان الوطنيين لا يلحقهم ذنب ولا لوم من تلك الفكرة ان فرضا انها فكرة  
تنافى المدنية، وان المنطق يتبرأ ممن يقول بمثل هذه النتيجة

وفد السيد جمال الدين علي مصر في سنة ١٢٨٦ وكان الشيخ محمد  
عبد في سن العشرين (لانه ولد سنة ١٢٦٦) وكان همه من حياته ايجاد  
حكومة اسلامية عزيزة قوية فاستمال الناس اليه بالعلم والفلسفة حتى اذا  
ما اجتمعوا حوله بث فيهم افكاره السياسية بطريق تعليم الكتابة والخطابة  
حتى كون لنفسه حزبا له ارتباط بولي عهد الخديوية (توفيق باشا) وكان  
اسماعيل باشا هو العقبة الكؤود في طريق الاصلاح المطلوب له فهل يعد  
من الغريب عند الامم الممدنة ان يتنى ازالها او يفكر فيها فينظر العالم  
المدن الى جميع الوطنيين المصريين الآن النظر الشزوا لان من علمهم  
السياسة وطلب الاصلاح فكر في ذلك منذ ثلاثين سنة؟؟

يا لله من هذا العالم المدني الذي لم يفكر في مثل هذا قط؟ ما هو  
وابن هو؟ أليس هو العالم الاوربي الذي قتل من الملوك والرؤساء في بلاده

واحدًا وعشرين ملكًا ورئيسًا في مدة لا تتجاوز قرناً من الزمان (٥) ونعني بالرؤساء رؤساء الجمهوريات الذين تبنتهم أقل من تبعه الملوك إن خطور الذنب بالبال ومكاشفة بعض البطالة به قد يكون ثنياً لا يصل إلى درجة العزم، وقد يعزم الإنسان على الشيء حتى إذا ما تم مباشرة واجمع نفسه وثني عزيمته فرجع عنه نادماً، فليت شعري ماذا كان يكون حكم لورد كرومر على جمال الدين ومحمد عبده وجميع الوطنيين المصريين الذين يودون استقلال بلادهم لو وفق السيد جمال الدين يومئذ إلى تنفيذ ذلك الخطر؟؟ أما كون السيد جمال الدين كان يعمل في مصر عملاً سياسياً فهذا مما لا يجمله لورد كرومر ولا أحد من ساسة إنكلترا وفرنسا الواقفين على أحوال مصر الأخيرة، وهم يطمون أنه إذا ترك السعي لقتل إسماعيل باشا فإنه قد سعى لعزله

قال الأستاذ الامام في كتاب تاريخ الثورة العرابية الذي عهد إليه تأليفه الأديب عباس حلمي الثاني في سياق الكلام على السعي في عزل إسماعيل باشا وذكر إرسال فرنسا موسيو تريكو مأموراً فوق العادة ليتعد مع وكيل إنكلترا بمصر على ذلك ما نصه

«ولكن كان الناس كافة في شوق إلى رؤيته (أي إسماعيل) ببدأً عن كرسي الخديوية، وطلاب الحرية من الأهالي كانوا يترددون على رئيس الوزارة المصرية يظهرون له الميل إلى جناب الخديو السابق توفيق باشا رحمه الله وكانت بينه وبين السيد جمال الدين كلمات ومخاطبات في هذا الأمر فسمى هو والكثير من الأعيان عند شريف باشا حتى يتنعم الخديو

الاسبق بوجوب التنازل ( عن الخديوية ) وقد فعل فأشار عليه بأن رفض  
الطلب لا يفيد وان الدولتين لا بد ان تتالما تطلبان عاجلا أو آجلا والتكر  
في الحرب رأى طائش فان الناس عموما في انحراف عنه فاذا حصل حرب  
خذه الجيش في أول واقعة وكانت عاقبة ذلك أشنع ، وان أمس شيء  
بالصواب أن يحول الامر على السلطان

« ثم ذهب وفد من المصريين ومعه السيد جمال الدين الى وكيل دولة  
فرنسا وأبناوا له أن في مصر حزبا وطنيا يطلب الإصلاح ويسعى اليه وأن  
الإصلاح المطلوب لمصر لا يتم الا على يد ولي العهد توفيق باشا وانتشر  
ذلك في القاهرة وغيرها وتناقلته الجرائد وهي أول مرة عرف فيها اسم  
الحزب الوطني الحر ، اه المراد منه

ان لورد كرومر يعلم هذا ويعلم ان اسماعيل باشا لم يكن امثله من  
اولئك الملوك الذين قلبهم العالم المتمدن وأخرم ملك البرتغال بل ولا من  
اولئك الذين ناروا عليهم وقتلهم ، حاكمة او بنير معا كمة ومنهم شارل  
الاول ملك الانكايا الذي قامت في وجهه الثورة الاهلية المشهورة وانتهت  
بقتله ، وان اغتيال ملك او أمير مخرب للبلاد ، ظالم للبلاد ، مضيق  
للملك ، مهلك للحرف والنسل ، أهون في نظر الفيلسوف من القيام بثورة  
عليه تسفك فيها دماء الالوف الكثيرة من الشعب ، ثم يقتل الملك بعد ذلك  
بمحاكمة صورية او حقيقية ان لم يقتل اغتيالا

ان ما شرحه لورد كرومر في تاريخ « مصر الحديثة » من فظائع اسماعيل باشا كاف  
في بيان كونه أسوأ حالا من الملوك الاوربيين الذين تارت عليهم رحمتهم بتدبير  
فلاسفتهم ومقلائهم فأين من اسماعيل باشا وليس السادس عشر وشاول الاول

٢٠٥ تمثيل الاستاذ الامام حال مصر في زمن اسماعيل (المنار ج ٢ م ١١)

قد مثل الاستاذ الامام في تاريخ الثورة المصرية حالة مصر التي زكها  
عليها اسماعيل باشا تمثيلا لطف فيه واستعمل الرأفة التامة في الحكم لانه كتب  
ذلك لحفيده الامير الحال كتابه حاول فيها الاعلام مع توقي الايلام فقال:

﴿ شؤون البلاد المصرية في شهر رجب سنة ١٢٩٦ ﴾

« تولى الجناب الخديو السابق توفيق باشا بعد ان تداخل دولتا فرنسا  
وانكلترا في شؤون البلاد المالية وارتبطت الحكومة منهما بتعود ووعود  
عدت قوانين وأصولا يجب احترامها

— وبعد أن كان قد أفضى الامر الى تعيين وزيرين أحدهما انكليزي  
للمالية والآخر فرساوي للاشغال العمومية في أواخر عهد اسماعيل باشا  
— وبعد ان كادت أحكام الحاكم المختلطة تؤدي بتنفيذها الى اشهار  
افلاس الحكومة، وأدت بالنقل الى انزعاج املاك كثير من ذوي الثروة  
من الاهلين

— وبعد أن كان موظفو الحكومة من أية طبقة كانوا في اضطراب  
من حالتهم المعاشية لتعود الحكومة على تأخير دفع المرتبات لاربابها اشهرا  
— وبعد ان صار رجال الحكومة في درجة من الفئلة عن مصالح  
البلاد الى حد لهم كانوا لا يفسون للوظائف معنى الا انها وسيلة لتحصيل  
التعود من الاهالي بأية طريقة يُدس منها شيء في جيوب المباشرين  
للتحصيل ويرسل الباقي الى خزائن الخديو او الى صناديق بعض المحتفين  
به والمقربين اليه

وبعد ان صارت الجندية في البلاد صورة لا يقدرها دفاع ولا حماية

وانما يراد بها الظهور بمظمة الملك فلم يكن فيها تربية عسكرية ولا تدريب حربي وكثيرا ما كانت تستعمل في حفر الترع وإقامة الجسور للمنافع العامة او الخاصة وكان المرجع في بعض الحروب الى ضباط من الاجانب كانوا أركان حربها، وعليهم الممول في أغلب شؤونها  
... وبعد ان فتح على الاهالي أنفسهم باب الاسراف والرفه في الميشة تقليداً للمصريين من مسند الخديوية ومن يليهم وذلك قبل ان يعرفوا لنفقاتهم ميزانا صحيحا يعادلون به بين ما بأيديهم من الاموال وما يتفقون في الذات

... وبعد أن نشأ عن هذا وعن شره الحكام في التحصيل وعدم رعايتهم لما عليه الاهالي من غنى ووفر واستعمالهم اشد العقوبات في سلب ما بأيديهم أن اضطر الاهالي الى التداين بالربا الفاحش حتى كان صاحب الارض يأخذ من المراي المئة بمئة في ثلاثة أشهر ولم يكن يرى في ذلك عيبا ولا يخشى عاقبة فان امامه القدوة العظيمة وهي الحكومة تستلف النقود بمبالغ من الفائدة لا يمكن لعقل عاقل تصديقها لو نسبت الى حكومة ما لو لم يرها بينه

... وبعد ان صار للربويين بذلك سلطة على الاهلين وطمع في اموالهم يفوقان سلطة الحكام وطمعهم

وبعد ان تعود كثير من الذين يسمونهم اكابر البلاد وأعيانها، أو ذوات الحكومة وأمرائها، على أن ينالوا من الحكومة ما يشتهون في الوقت الذي يريدون متى صادفوا مكانا من رضى الخديو او بعض

المقربين اليه فكانوا يسخرون الاهالي في أعمالهم الخاصة وتصرفون فيهم كما يصرف الراعي في ماشيته بدون ان يراعي أحد منهم في ذلك نظاما ولا عدلا ولا استبقاء منفعة من يوم الى آخر وتمود الاهالي على الشكوى الى الله وحده من ضيق الحال وخمود الزمان وانطفاء مصابيح الرشاد في جميع الطبقات

.. وبعد ان صار كل واحد من الناس في خوف دائم واضطراب لا يهدأ على نفسه وما بيده ، اذا تكلم تتمتع في كلامه ، واذا تصد امرأ خطأ اليه على غير هدى ، يتلفت وراءه خوفا مفاجأة بما يكره .

.. وبعد ان كانت الثقة قد شلت جميع الطبقات الدنيا والوسطى حتى خيف القبط العام لو استمرت الحكومة على سيرها الماضي سنة أخرى من الزمان

.. وبعد ان صارت عيون الناس بأسرهم شاخصة الى ما عساه ينزل من السماء ليهدم بالموتة على الخروج مما هم فيه

.. هذه كانت حالة البلاد عند ما تولى المرحوم توفيق باشا مسند الخديوية فيها . هذه كانت شدائد مهلكة ، وظلمات حالكة ، يضل فيها الرشيد ، ويتضر فيها العزم الشديد ، اه المراد عما كتبه هناك

وقد استطرده منه الى بيان اعتقاد أهل مصر في حكاهم الى ذلك العهد ثم الى بيان ما أحدثه السيد جمال الدين من الانقلاب في الافكار وقد نسبت الاشارة اليه . وكان كل ذلك من مبادئ الحوادث العرابية ومقدماتها ، وان شئت قلت من عللها وأسبابها ، فكل ما كتبه عن سوء حال البلاد في حكم اساميل لم يكتب على سبيل القصد ولم يرد منه الاستقصاء في بيان الحال ، فضلا

عن المبالغة في التبجح والتعير، فهل يلام من له عقل يفكر، وقلب يشعر، اذا  
مات ذلك الأمير، وتعنى لو بمثاله احد من اولئك المظلومين المقهورين او  
استحسن تخي من تخي ذلك؟

الشيخ محمد عبده وموقف حزبه بمصر

وهناك مسألة أخرى عدتها بعض الناس قدحا من اللورد في الشيخ  
محمد عبده وحزبه وهي قوله فيهم أنهم «أدنى من المسلم المحافظ في اسلامهم  
وأدنى من المصري المنالي في ترجمته»<sup>(١)</sup> والحق ان هذه العبارة لا  
يتقد منها الا لفظها فهي مدح كتب في حال استيائه واستعاض فجاء شيئا  
بالدم اذ توهم انهم دون الثريين في علم او فضل ومناها الحقيقي ان هؤلاء  
القوم وسط بين طرفين مذمومين طرف التشديد في المحافظة على الرسوم  
والتقاليد القديمة باسم الدين وطرف المتغالبين في تقليد الافرنج الذين اضعوا  
دينهم وثورتهم في ذلك وقد بالغ اللورد في ذمهم . ولم يرد اللورد بهذه  
العبارة الا ما اوضحه في تقرير سنة ١٩٠٥ من ان حزب الشيخ محمد عبده  
هو الحزب المتدل في مصر الذي يناط بجاحه استقلال هذه البلاد  
الاستقلال الحقيقي فلا فرق بين عبارته في التقرير وعبارته في التاريخ  
في بيان المراد الا ان احداها كتبت في حال رضى فقلت المعنى مضيا  
واضحا والثانية كتبت في حال السخط فنشي المعنى فيها غاشية من  
ظلمة الايام

وقد زلّ قلم اللورد بسوء تأثير وجدان السخط زلة اشنع من هذه لعله  
اذا ذكرها يعرق من الخجل وهي انه ذكر في التقرير ان توفيق باشا صنع

عن الشيخ محمد عبده « طبقاً لتصف به من الحلم وكرم الخلق »<sup>(١)</sup> وقال في كتاب مصر الحديثة انه عنا عنه « بما فطر عليه من مكارم الاخلاق واتقياداً لتشديد الانكياز عليه في ذلك »<sup>(٢)</sup> فزيادة اتقياده لتشديد الانكياز تقضت ما قبلها الموافق لما ذكر في التقرير فان العفو اذا كان عن اتقياد لتشديد الانكياز لا يكون عن حلم وكرم خلق والا فلا أثر لتشديد الانكياز بل لم يكن هناك حاجة اليه

فاللورد جدير بأن يجعل من هذه العبارة اذا قابلها بعبارة تقريره في المسألة لانها جطت كلامه متناقضاً او متعارضاً وأبانت ان يجابي في المدح عند الرضى فانه جعل عفو توفيق باشا عن الشيخ محمد عبده عند رضاه عنهما مما كرمنا وطلبنا وكرم خلق فلما سخط من الثاني جعل ذلك العفو ناشئاً عن تشديد من الانكياز في طلبه لاعن مجرد الطلب فيقال انه طلب وافق حلم توفيق وكرم خلقه وانما أراد اللورد بذلك أن يظهر فضله عليه ، ليثبت أنها ساء الى من أحسن اليه ، بما أظهر عن عيوب سياسة الاحتلال وإدارته لمستر بلنت . والمؤرخ المحابي متهم لا يوثق بمدحه لمن يرضى عنه ، ولا بذمه لمن يسخط عليه ، وبناء على هذه القاعدة نقول ان ثناء اللورد على الشيخ محمد عبده في كتاب مصر الحديثة يعد بما فيه من الشوائب منتهى الفضل وشهادة اللورد به شهادة جديرة بالاعتبار والا يثار وهو يلخص في هذه الكلمات

(١) انه احسن العمل في القضاء وأدى الامة حقها

(٢) كان واسع الرأي

- (٣) كان على علم ونباهة
  - (٤) كان عدوا للعدويين والباشوات غير الصالحين
  - (٥) كان وطنيا حقيقيا ومن مصلحة الوطنية المصرية ان يكثر امثاله
  - (٦) انه أسس في مصر مدرسة فكرية
  - (٧) ان له في مصر حزبا مستقلا يجمع بين اصول الاسلام والمدنية
  - (٨) ان أتباعه هم حلفاء المصلح الاوربي الطبيعيون الجديرون بمساعدته
  - (٩) ان له برجراما لجعل مصر مستقلة استقلالاً ذاتياً حقيقياً
  - (١٠) ان تقدم اتباعه خير رجاء له في تنفيذ برجرامه هذا
- فحسبنا من اللورد الشهادة بهذه العشر ولا يضرنا مما ظنه انه كان لا أدرياً، ولا جزمه بأنه كان خيالياً، ولا إيهام عبارته أن حزبه الوسط دون كل من الطرفين الذي هو وسط بينهما

نم كان حزب الشيخ محمد عبده معه ولا يزال من بعده وسطاً بين المحافظين الجامدين، والمتفرجين المقلدين، ومنهم من هو أقرب الى هؤلاء ومن هو أقرب الى أولئك، اما الشيخ نفسه فقد كان من آياته أن أذكياء كل فريق من المتفرجين والجامدين يجلونه مع احترام كل منهما للآخر. وقد عرف أصحاب المقطم والمقطف من كنه هذه المزية ما لم يعرفه اللورد او صرحوا به لم يصرح هو به اذ قالوا في تأييده بالمقطم (ع ٤٩٥٢) مانصه<sup>(١)</sup> :  
« فأول منزلة امتاز بها التقيده انه كان في مقدمة كل فريق من الفريقين اللذين اتقسم اليهما المصريون في هذا العصر : فقد كان علماً مهتدي بنور علمه فريق المحافظين الذين لا يروقههم غير ما جرى عليه

المتقدمون كالعلماء والائمة وطلبة العلوم الدينية والنوعية ومن جرى مجراهم ، وكان قائدا للآراء ومديراً للأفكار شديداً في التفرقة الذي جعل شعاره التقدم والارتقاء من أبناء هذا العصر الذين يرون ان التقدم لا يبنى عن الحديث وان من لا يتقدم بتأخر والسكون المطلق محال ، ونقول ولا نحشى في الحق لومة لائم ان التقيد فاق الاقران كلهم في هذه المزية حتى اشهد فيها او كاد ، الخ

وكتبوا في الجزء الثامن من المجلد الثلاثين لجملة المتكلم ما نصه (١) :

« وكان ذكي الفؤاد بالطبع قوي الحجة حسن المحاضرة لا يخاف في الحق لومة لائم ولا يهيب الكبراء والقطعا لمجرد ما هم فيه او ما أدركوه من رتبة المقام فاستطاع ان يكون علما يهتدي بنور علمه المحافظون الذين لا يروهم الا ما جرى عليه المتقدمون كما كثرت العلماء وطلبة العلوم الدينية والنوعية ومن جرى مجراهم لانه كان ثقة فيهم - وعضدا قويا لآباء هذا العصر الذين استناروا بالعلوم الحديثة والآراء الجديدة ، ومرشداً صادقاً للذين يطلبون الاستنارة بها والسير في سبيلها ، » الخ

هذا رأي أصحاب المقلم والمكتطف سقناه الى اللورد لان مثبته

غير متهمين عند اللورد بقلة المعرفة ولا بالتشيع للشيخ محمد عبده  
وإذا أراد اللورد ان يعرف مكان الاستاذ الامام من نفوس أرقى  
الطائفتين ( المحافظين والتمرنجين ) فليقرأ ما أئنه به الشيخ احمد ابو خطوة  
أرقى الأزهرين علما وفهما وقاسم بك أمين أرقى المتعلمين في أوروبا واللورد  
يشهد ببوغه وقد أئني عليه في خطبته التي ودع بها مصر ذلك الوداع المشهور

قال القاضي الشرعي الشيخ أبو خنطرة في ابتداء كلامه «اجتسنا اليوم هنا حوالی هذا القبر الجمال الموقر الذي انتهى اليه أمر الامام الكبير الاستاذ الشيخ محمد عبده» الخ ثم فصل اصلاحه للازهر والمعالم الشرعية تفصيلا وقال القاضي الاهلي قاسم بك في ابتداء كلامه «مهما قلبنا النظر ودققنا في البحث والتفتيش فلا نجد في امتنا من يعرض علينا ما خسرناه بفقد استاذنا الشيخ محمد عبده» وقال انه «وصل الى أسنى مقام يمكن ان يناله انسان في هذه الحياة .... مقام الامامة بأوسع معناها تركه الشيخ محمد عبده ولا يوجد في مصر واحد يجراً على ان يدعي فيه استحقاقاً بعده» ثم قال: «سادتي: ان كل نفس بشرية لها نصيب من الجمال والقيح، والجمال المطلق لا يوجد في هذا العالم ولكن بعض النفوس المتأززة تقرب من الكمال أكثر من غيرها فتتمو زهرة الجمال فيها نموا عجيبا وتتكاثر فروعها وتعتد طولاً وعرضاً ولا تترك محلاً لسواها فيضعف ويذبل كل نبات خبيث بجانبها، ومن هذا القسم المتأززة كانت نفس امامنا العزيز، نفس خلقت على أحسن شكل، زينها صاحبها بالفضائل حتى صارت مثالا في الجمال يجب ان نضه دائما امامنا لتعلم منه» كذا وكذا وذكر بعض سنن الامام ثم قال «وتعلم منها أيضا مباح ارتقاء الخلق في انسان اجهد نفسه وورباها حتى أرسلها الى اقصى ما اتصل اليه نفس بشرية من الجمال والكمال»

وبهذا نكتفي في هذه المسألة التي يعرف منها طريق اللورد في الكلام عن رجالنا وننتقل منها الى المقصد الام وهو كلام في الاسلام والمسلمين فتقول